# الأوزاعي أرض غُربة وتهجير

ريان ناصر

**«إن الهوية إبداع صاحبها، لا وراثة ماضي»**

الشاعر الفلسطيني محمود درويش

كيف يمكن للهوية أن تكون منفتحة على التعدُّد؟ لطالما راودني هذا السؤال، بعدما انتقلت من منطقة الأوزاعي حيث لتلك المنطقة محطة أساسية في حياتي من الولادة والنشأة... ولطالما تردَّد على مسمعي حكايات كثيرة عن التبدُّلات السكنية التي شهدتها هذه المنطقة بفعل الحروب.

أن تحمل على كتفَيك كاهل الطفولة والشباب وتمضي بعيدًا يعني أن تُعيد النظر في مكان نشأتك بصورة مغايرة قد تكون إلى حد كبير أوسع وأشمل مما كنت عليه داخل «المربَّع الآمن». ويعني أيضًا أن تشكِّك بهذا «المربَّع الآمن» نفسه. كيف لمجموعات من خلفيّات متعدِّدة، تهجَّرت من أماكن مختلفة، قد وصلت إلى نقطة تجمّع واحدة؟ وكيف تشكّل ما نُطلق عليه «الفرز الديموغرافي».

أن تفقد مجموعة ما مفهوم الهوية في مكان مُغلق هو المحفِّز الأساسي لبناء كتلة جماعية موحَّدة تتشارك نفس الأوجاع والأحلام، وربما أحيانًا المصير والقدَر، خصوصًا إذا كان الماضي نفسه نقطة مشتركة أيضًا، وهو خلفية الحرب ونتائجها.

هذا ما يُميِّز مجتمع منطقة الأوزاعي الذي تشكَّل مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية، حيث لا هوية فردية لسكان تلك المنطقة وجميعهم توحِّدهم هوية جماعية تندرج تحت مسمّى «هوية المكان الواحد» الذي جمع أُناس بعضهم تهجّر بفعل الحرب وجاء من ضواحي بيروت الشرقية، وبعضهم الآخر نزح من قرى جنوبية وبقاعية وسكَنوا تلك البقعة الصغيرة الساحلية، وهي ما أُطلق عليها اليوم تسمية «أرض الغرباء».

حاجة سكان الأوزاعي لإيجاد مساحة آمنة دفعهم للاتحاد والتلاحم وبناء مربَّع مستقل ومتفرِّد بذاته، له لغته وكلمات مفتاح خاصة بأهاليه. أسلوب كلامي خاص في كل مجموعة، التقت في مكان واحد، تلاقت الكلمات إلى أن تكوَّنت لغة الأوزاعي الخاصة والتي وصلتنا نحن جيل اليوم بالتواتر من جيل إلى جيل.

**داخل المكان**

لم أعرف في طفولتي مسمَّيات رسمية مكتوبة على جدران، ذاكرتي محصورة في تقاطع زاروبين يجمعهما «دكانة أم محسن»، ومدرستي التي كانت تُدعى «رويال سكول» وتقع في «الحيّ الجوّاني». مساحة اللعب والأحلام كانت تنتهي دائمًا عند «راس الطلعة» حيث الشارع العام الذي علِمت في ما بعد أنه مدخل العاصمة بيروت. أحياء تسكُن أحياء، بعضها يُنسب إلى أسماء قراهم كـ «حي أهل بليدا»، وبعضها يُنسب إلى أسماء العائلات مثل «حي آل عساف». وبعض مسمّياتها تتّصل مباشرة بالحرب الأهلية و«شهدائها»، «شهداء» الجهات

الداخليـة والحـروب الأهليـة المُتكـرِّرة أو الحـروب الإسـرائيلية التـي لا زلنـا نعيشـها حتـى اللحظـة.

جغرافيًّـا، وعلـى الرغـم مـن أننـا نتنفَّـس رائحـة ميـاه البحـر ويلفحنـا رذاذ أمواجـه وتبتـلّ شـفاهنا بالميـاه المالحـة عندمـا نغسـل وجوهنـا صباحًـا، إلّا أن ليـس لـكل البيـوت الحـظّ فـي أن تـرى أو تجـاوِر البحـر، فالنـاس «المهجريـن» كُثـر وبيوتهـم متلاصقـة، بعـض الشـبابيك مفتوحـة علـى البحـر الكبيـر والغالبيـة منهـا تطـلُّ بعضهـا علـى بعـض.

هـي الحـرب الأهليـة التـي لـم أكـن قـد وُلـدت بعـد عندمـا اندلعـت وعندمـا انتهـت. هـي مـن نتائجهـا التـي أفـرزت تلك العشـوائيات فـي الأبنية والجدران الإسـمنتية التـي تحجـب عنّـا زِرقـة البحـر كمـا تحجـب عنّـا الحيـاة الأخـرى التـي تعيشـها المدينـة، رغـم أن بعض مسـمّيات النواحـي كانـت ثقيلـة علـى مسـامعنا نحـن الأطفـال مثـل «حـي السـان سـيمون» و«الأكابولكـو»، والتـي لـم يبـقَ منهـا اليـوم سـوى الاسـم وبعـض الأطـلال، منهـا ومـن جـدران الشـاليهات ومنتجعـات السـباحة التـي كانـت تسـتقبل أغنيـاء المدينـة وسياسـييها والسـوَّاح، فـي الخمسـينات والسـتينات قبـل الحـرب.

أثنـاء الحـرب تغيَّـرت وُجهـة المنطقـة السـياحية الفاخـرة وانتهـت ببنـاء مكعّبـات إسـمنتية واكتظـاظ سـكاني عشـوائي وصـولًا إلـى مـا وصلـت إليـه اليـوم مـن تجمُّعـات وأحيـاء مُقفلـة علـى سـاكنيها، بعضهـا عائلـي وبعضهـا الآخـر خـارج عـن القانـون، تطلـع علينـا كل يـوم بأحـداثٍ وحكايـات عنيفـة تسـتمدُّ عنفهـا مـن عنـف حروبنـا الصغيـرة.

**قرية حنتوس**

بالعـودة إلـى القديـم، لطالمـا تسـاءلت عـن أصـل هـذه البقعـة التـي كانـت مرتفعًـا رمليًّـا يمتـد إلـى منطقـة

الرملـة البيضـاء، وكانـت قبـلًا قريـة صغيـرة تُدعـى «حنتـوس» قبـل نحـو 1240 سـنة، تقـع فـي المنطقـة الجنوبيـة مـن مدينـة بيـروت بمـوازاة البحـر. اندثـرت قريـة «حنتـوس» مـع مـرور الزمـن وتبـدُّل العصـور، باسـتثناء مسـجدها القديـم الـذي كان يُسـمى «مسـجد حنتـوس»، والـذي يحتضـن ضريـح الإمـام الأوزاعـي المتوفـى سـنة 773 ميلاديـة. لسـت أدري لمـاذا شـخصية مثـل شـخصية الإمـام الأوزاعـي، إمـام بيـروت وسـائر الشـام والمغـرب وصـولًا للأندلـس، والـذي وُلـد فـي مدينـة بعلبـك، هـو عبـد الرحمـن بـن عمـرو بـن يحمـد الأوزاعـي، كان يلقّـب بإمـام أهـل الشـام، وكِنيتـه هـي أبـو عمـرو، ينتمـي إلـى الأوزاع؛ وهـي منطقـة فـي دمشـق سـكَنها فـي غابـر الأيـام العديـد مـن القبائـل، قيـل إنّـه كان أعلـم أهـل الشـام، وعُـرف بأنّـه ثقـة ومـن أخيـار النـاس. كان واحـدًا لا مثيـل لـه فـي زمانـه، فقـد كان عالـم عصـره، لا يخـاف فـي اللـه لومـة لائـم؛ يقـول كلمـة الحـقّ فـي كلّ حـال دون أن يخـاف سـطوة ملـك أو سـلطان.

لسـت أدري لمـاذا أوصـى بدفنـه فـي قريـة «حنتـوس»، لتحمـل بعدهـا اسـمه. أتسـاءل: هـل يعـرف سـكان

المنطقة اليوم مَن هي هذه الشخصية التي تحمل اسم مكان إقامتهم والذي لُقِّب بشفيع المسلمين والنصارى واليهود في العصرين الأموي والعباسي.

يُدفن الإمام الأوزاعي اليوم وحيدًا مع تاريخه محاطًا بعشوائيات في اغتراب دائم كحال سكان المنطقة، وهو مُحاط بالأبينة الإسمنتية بعد أن كان معْلَمًا فريدًا ووحيدًا على شاطئ البحر، حتى تابعيه من البيارتة الذين سكنوا في الأوزاعي قبل الحرب وكانوا يعملون في البحر والمرفأ تركوا الأوزاعي، مكانًا وإمامًا، تدريجيًّا خلال الحرب الأهلية والنزاعات بين الطوائف وبات مرتادو المسجد اليوم يُعدون بالعشرات فقط.

**كنيسة سيِّدة البحار**

حيّ الكنيسة كان من التسمّيات التي لا تقلّ غرابة عن سابقتها في طفولتي، ماذا تفعل الكنيسة بيننا؟ أتساءل أنا الذي وُلدت بعد الحرب. «المسيحية» بالنسبة لي هي الآخَر الغريب والتي عرفتها من خلال اسم الحيّ، ومن خلال قصة الجارة التي تُدعى منى مارون، المسيحية التي تزوجت مسلمًا ولقَّب سكان الحيّ أولادها باسم عائلتها، ومنهم ابنها، المعروف اليوم في الحيّ، بمحمد مارون. والآخر، المسيحي، لم يُهجَّر من منطقة الأوزاعي فحسب، بل هُجِّر من ساحل المتن الجنوبي بشكل عام، كبلدات حارة حريك والمريجة والليلكي، وكذلك العائلات التي كانت تعجُّ أملاكها بالحدائق وبساتين البرتقال، كما روَّته لي منى مارون.

هي الحرب إذن، التي نعيش مخلّفاتها دون أن نحصل على أجوبة نهائية عن مسبِّباتها وبداياتها ونهايتها المفتوحة. نبحث اليوم عن مسبِّباتها في الكتب والمقالات، وأختصر صورة الآخر بجارتنا وببقايا تلك الكنيسة التي ليس من زمن بعيد علمت أنها شُيِّدت عام 1952 وكان يرتادها سكان الأوزاعي من المسيحيين المتواجدين على الشواطئ.

تقول الرواية التاريخية إنه بعد أحداث 1860 لجأ المسيحيون الهاربون من المذابح في الجبل إلى ساحل الأوزاعي وخلدة والدامور ليسكنوها ويزرعوها ويعيشون فيها. وكانت الأوزاعي قديمًا قريةً معظم سكانها من المسيحيين ومن أشهر عائلاتها: الحسيني وإبراهيم ومتّى وطويل وسعادة ودكّاش.

وتقول الرواية إن مصطافين من المسيحيين كانوا يقصدون منطقة الأوزاعي لقضاء عطلة الصيف بالقرب من البحر، وحتى يمارسوا طقوسهم الدِّينية أشادوا هذه الكنيسة التي سُمّيت بـ«سيدة البحار» بين عامي 1952 - 1953. بعد انتهاء الحرب الأهلية لم يعُد أحد إلى الشاطئ الذي كان مركزًا للاصطياف والمنتجعات السياحية، ولم يعُد حتى سكانها الأصليين من المسيحيين وبقيت أطلال كنيسة «سيدة البحار» تنتظر حتى اليوم عودة أبناءها إليها، مثلما بقي ملفّ الحرب الأهلية مفتوحًا ومستمرًّا وحائلًا دون عودة السكان الأصليين إلى منازلهم وأملاكهم.

لا أجوبة شافية من المطرانية التي تقع الكنيسة في نطاقها الرَّعوي ولا مخططات موضوعة تشي بقرب إعادة بنائها من قِبل بلدية المريجة التي تقع الكنيسة في نطاقها العقاري، سابقًا. وعلى الرغم من أن بعض الكنائس في ساحل المتن الجنوبي قد رُمِّمت وأُعيدت مفاتيحها إلى رعيَّتها إلّا أن كنيسة «سيدة البحار» ما زالت وحيدة تنتظر روّادها.

في الذكرى الخمسين لانطلاقة الحرب الأهلية أجريت مُقارنة بين الأوزاعي قبل الحرب وبعدها؛ هنا مسجد الإمام الأوزاعي الذي كان معلَمًا دينيًّا وثقافيًّا على مدخل بيروت الجنوبي، وهناك كنيسة

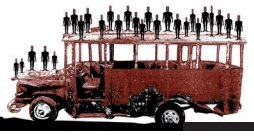

«سيدة البحار» وقد تجمَّع الناس عند افتتاحها حاملين العلَم اللبناني، وهذا شاليه «أكابولكو» لصاحبه رجا صعب وبناه فرديناند داغر.

وفي صورة أخرى تستلقي سيِّدتان بلباس البحر تحت أشعة الشمس وتبتسمان للكاميرا. أين تهجَّرت هذه الناس؟ وكيف حَزموا أمتعتهم؟ وفي أي تاريخ تركوا المنطقة؟

في الذكرى الخمسين لبداية الحرب الأهلية لم تعُد الكنيسة المهجَّرة بعد لتؤنِس الإمام الأوزاعي في وحدته، ولم يعُد سكانها المسيحيين ليرمِّموا لنا ذاكرة أناس وناحية وُلدوا وعاشوا فيها وأنجبوا.

خمسون عامًا ولم تنتهِ الحرب ولا زلنا نعيش مخلَّفاتها، في عنفها، في انقساماتها العمودية والأفقية؛ خمسون عامًا ونحن جيل ما بعد الحرب ما زلنا نبحث عن مسبِّباتها وبدايتها ولم ولن نصل إلى النهاية السعيدة.